

التجربة التأملية في الشعر الأندلسي - دراسة تحليلية في شعر ابن خفاجة الأندلسي -

**The contemplative experience of Andalusian poetry
- An analytical study of the Ibnkhafajah's Andalusian poetry -**

أم الخير بن بلخير¹ جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر) مخبر اللغة العربية وآدابها

محمد قريبيز² جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2022/01/16 تاريخ القبول: 2022/05/22 تاريخ النشر: 2022/12/15

ملخص:

تروم هذه الدراسة إبراز معالم التجربة التأملية في الشعر الأندلسي، خاصة عند ابن خفاجة الذي صبغت أشعاره صبغة التأمل والفلسفة، في محاوراته مع الجبل والقمر والليل، وقد اندمج الشاعر مع الطبيعة ليضفي عليها مشاعر الإنسان القلق الحساس نحو قضية الفناء، فكانت تجربته تجربة ثرية وعميقة، فقد تأمل في خفايا النفس، وحلق في أسرار الكون وخفايا الوجود، مما يستوجب في هذه الدراسة التحليلية كشف اتجاه تأملي جديد في ثنايا خطاب الموت من خلال أنسنة الجمادات، تلك هي ثلاث نماذج نحاول تحليلها وإبراز آفاق التجربة التأملية وأبعادها الموضوعية والفنية.

كلمات مفتاحية: التجربة التأملية؛ الشعر الأندلسي؛ الطبيعة الصامتة؛ ابن خفاجة.

Abstract:

This study aims to highlight the reflective experience of Andalusian poetry, especially in Ibnkhafajah, whose poetry has shaped meditation and philosophy in his dialogues with the mountain, the moon and the night, the poet has merged with nature to give them human anxiety to the cause of annihilation. His experience has been rich and, profound. He has reflected on the mysteries of the universe and the mysteries of existence. In this analytical study it is necessary to reveal a new contemplative trend in the speech of death through the humanism of immortality.. These are three examples that we try to analyze and highlight the prospects for reflection and the substantive and technical dimensions of experience.

Keywords: Reflective experience; Andalusian poetry; Silent nature; Ibnkhafajah.

المؤلف المرسل: أم الخير بن بلخير، الإيميل: o.benbelkhir@lagh-univ.dz

1. مقدمة:

يتسم كل عمل أدبي بالخلود إذا ورد عن تجربة إنسانية صادقة، وهذه التجربة لا تكتمل إلا إذا امتزج فيها الفكر والوجدان، ويعتبر التأمل منبع هذه التجربة الشعرية، لأنه صادر عن استغراق في التفكير وصدق الشعور، بحيث يحاول الشاعر البحث عن تفسير الوجود من خلال التأمل في مظاهر الكون.

والتأمل ميزة قد اتسم بها الشعر العربي الحديث خاصة في أدب المهجر، وأصبح نزعة واضحة، إلى جانب النزعة الإنسانية، ولما كان الشعر الأندلسي شعرا إنسانيا، قد برزت تأملات عميقة في قضايا جوهرية، وقد شكلت ثنائية الحياة والموت معلما بارزا في الشعر الأندلسي، لاسيما عند ابن خفاجة، بحيث ارتقى من التصوير الحسي والمباشر للطبيعة، إلى آفاق أعمق تتصل بقضية الوجود، من هنا شغلت قضية الفناء الشاعر، وشكلت لديه هاجسا يورقه في حياته، مما دفعني إلى الكشف عن هذه التجارب التأملية وما تثيره هذه القضية من قلق وصراع نفسي بين الأنا والواقع، والوقوف عند أهم معالم التجربة التأملية، باستخدام منهج تحليلي وموضوعي يركز على موضوعات التأمل: خاصة قضية الحياة والموت والإنسان من خلال تحليل نماذج شعرية..

وقد تم اختيار ثلاث نماذج من شعر ابن خفاجة هي: قصيدة الجبل وقصيدة القمر وقصيدة عن الليل قد تجلت فيها التجربة التأملية بشكل واضح.

وهناك دراسات سابقة تناولت موضوع الحياة والموت في الشعر الأندلسي نذكر منها:

"استدعاء القمر في شعر ابن خفاجة دراسة تحليلية" لمحمد عيسى الحوراني، "تأملات فلسفية في القيم الروحية للشعر الأندلسي، الحياة والموت أمودجا" لمحمد شهاب العاني ومحمد جبار، "خطاب الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي، قصيدة الجبل أمودجا" لراشد عيسى ونضال الشمالي، "فلسفة الحياة والموت في الشعر الأندلسي" لمقداد رحيم.

والملاحظ في هذه الدراسات السابقة، أنها لم تنفرد دراسة بالتجربة التأملية لدى شاعر معين خاصة، وأهملت موضوع التأمل باعتباره فلسفة وجودية، كما أنها تدور في محور واحد ألا وهو الموت، وفي بحثنا هذا نطرح بعض الإشكالات أهمها:

- ما هو مفهوم التجربة التأملية ؟
- ما هي أهم الحوافز المؤدية للاتجاه التأملي عند ابن خفاجة ؟
- كيف تجلت التجربة التأملية عنده ؟

2. مفهوم التجربة التأملية:

تعتبر التجربة الشعرية رؤية متكاملة لشاعر معين اتجاه قضية، شغلت تفكيره وانفعل بها، وهي تجربة تنبثق من تجربة الحياة، فالشاعر حساس يرى الأشياء والظواهر بعين أكثر دقة، ويقترّب من الحقيقة، بل إنه يستشرف المستقبل من خلال تجاربه المختلفة.

"وتعني التجربة مهارة وخبرة وتكتسب من المشاركة في أحداث أو ملاحظتها، وتميز عادة بين مصدرين للتجربة: المعاينة والتقصي، والتجربة الأولى هي أول مواجهة تتم مع النص الأدبي الذي منع فيه عن هذه التجربة.

يكسب تراكم التجارب مهارة خاصة في الحقل الأدبي" (علوش، 1405هـ/1985م، صفحة 60)، فالشاعر قد يمر بعدة تجارب في واقعه في هذه الحياة أو يمكن أن يعاينها ويلاحظها عند الآخر، لأنه أكثر حساسية ويستشرف الحقائق، وقد عرف غنيمي هلال التجربة الشعرية: بالصورة الكاملة النفسية أو الكونية، التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور، تفكيراً ينم عن عميق شعوره وإحساسه، وفيها يرجع الشاعر إلى اقتناع ذاتي وإخلاص فني، لا إلى مجرد مهارته في صياغة القول ليعبث بالحقائق أو يجاري شعور الآخرين، بل إنه يغذي شاعريته (غنيمي، النقد الأدبي الحديث، 2005، صفحة 363).

إذا كانت التجربة يعيشها الشاعر أو يلاحظها عند الآخر بتفاصيلها الدقيقة وجزئياتها، فإنه يمزج في ذلك بين الوجدان والفكر، والفكر ههنا نقصد به التأمل العميق والذي يعرفونه، بحالة من الغيبوبة الفكرية والاستغراق الذهني، يعرف بها المرء حول موضوع أخذ بجامع فكره، تحصل لأصحاب الفكر، كي يستجمعوا أفكارهم ويعنوا بتصويرها وترتيبها لعملهم الفكري أو الأدبي، وكثيراً ما يستسلم إليها المرء باللاشعور، إذ تمر بمخيلته أطراف تجعله كالنائم وليس نائماً وهي شبيهة بأحلام اليقظة (التونجي، 1419هـ/1999م، صفحة 220).

من هنا تصبح تجربة الشعراء تجربة جمالية منبثقة من الذات نحو الموضوع، ممزوجة بالفكر والوجدان، يحاول فيها الشاعر فهم حقيقة الكون وتفسير لظواهر مختلفة.

وقد رأى هاملتون "أن التجربة الجمالية الكاملة هي تجربة تأمل، لا يشتت فيها اهتمامنا فيتحول إلى ما هو عملي، سواء كان ذلك إيجاد حلول السعادة أو تأكيداً لأهمية واجب خلقي أو يتحول إلى ما هو فكري، وتتضمن كلمة فكري هنا، كل ضروب النشاط المتواضعة التي يمارسها العقل القلق، والجمال يوجد في موضوع التجربة الجمالية، فحينما تكتمل هذه التجربة، ننسى أنفسنا ويكاد يختفي التميز بين الذات والموضوع إذ نفقد ذاتنا في الموضوع ونستمتع بنشوة التأمل" (عبد الدايم، 1413هـ/1992م، صفحة 25).

فالتجربة التأملية تجربة شعورية وشعرية في آن واحد، إذ يفكر الشاعر في مشكلة أو قضية عامة وشمولية بحيث يستقصي الشاعر هموم الإنسان المختلفة ويسوغها في قالب جمالي فني بمختلف وسائل اللغة.

3. أهم الحوافز المؤدية للاتجاه التأملية عند ابن خفاجة:

كانت هناك أسباب مهمة حفزت ابن خفاجة للجوء للاتجاه التأملية منها الغربة والأوضاع السياسية والاجتماعية، والطبيعة، مما جعلت تجربته صادقة وعميقة.

1.3 الغربة:

الكثير من الشعراء الأندلسيين قد عانوا من مشكلة الغربة، وقد أبعدها عن أوطانهم بسبب الحروب والنزاعات التي سادت عهد ملوك الطوائف، وكان ابن خفاجة واحدا منهم قد عانى مرارة الغربة حين رحل إلى المغرب، تاركاً بلده شقر التي عاش فيها وترعرع، وبات ينشد أشعار شوق وحنين إلى بلده، بالإضافة إلى الغربة النفسية التي عاشها الشاعر، في واقع بقي فيه وحيدا بعدما رحل أصحابه ورفقته، وعاش شيخوخته متأملاً حدثان الدهر وتقلباته، كما أن ابن خفاجة لم يتزوج مما زاد في معاناته.

فقد مزقت الوحدة كيان الشاعر، وعاش التناقضات في حياته، بحيث انقلبت من حياة اللهو والمجون في الشباب إلى حياة يائسة حزينة متأملة وحيدة.

2.3 الأوضاع السياسية والاجتماعية:

مما لا شك فيه أن عهد ملوك الطوائف قد شهد جملة من الأحداث على الصعيد السياسي والاجتماعي، فقد كان مليئاً بالتناقضات السياسية، وبحراً متلاطماً من المنافسات والمنازعات والحروب الأهلية، حياة متشعبة مضطربة يسودها الفتن والنكسات المتتالية، بحيث حان أوان الحصاد لكل ما بذرت الخلافة المجيدة، عصر الحجابة الزاهرة من جرائيم الخير وعناصر الفلاح على السواء، أثمر فيها الخطأ كما أثمر فيها التوفيق، بلغت الغاية في الحالتين وتوزعت خيراتهما وشروورها أيضاً، جماعات مختلفة من كل جنس ودين، ولقد أثمار صرح الخلافة الواحدة وتفرقت أيدي سبأ، وقام على انقاضها رؤساء طوائف العرب، وأمرء الجماعات البربرية، وقتيان صقالبة القصور، وتقاسمها إمارات، وظهر اليهود على المسرح السياسي ومكنوا لأنفسهم في إمارة غرناطة زمننا، وقد تغيرت الأمور واستيقظت إسبانيا النصرانية ومدت يدها إلى أوروبا، وبين ناري النصراري في الشمال والبربر في الجنوب، وقف ملوك الطوائف وقد وهن أمرهم وأضعفهم النزف والبذخ (مكي، 1987م، صفحة 225، 226).

من هنا انعكست هذه الحياة على نفسية الشاعر، بحيث أصبح يرى الحياة من منظور مأسوي، يعيش الوحدة والعزلة، خاصة بعدما تقدم به السن وأخذ الموت كل رفاقه وأصحابه، بالإضافة إلى الفراغ العاطفي الذي أحسه الشاعر إذ أنه بقي دون زواج.

كل هذه العوامل ساعدت على انقسام شخصيته إلى اتجاهين متناقضين هما:

الاتجاه الأول: حياة الشباب، اتجاه لاه ماجن، حب الخمر والغلمان واللهو .

الاتجاه الثاني: شيخوخة ابن خفاجة تميزت بالتوبة والزهد، ونسكه وتأمله في الحياة والموت، مما جعل شخصيته مضطربة، قلقاً وتائهة في هذا الوجود.

3.3 الطبيعة:

تعتبر الطبيعة الأندلسية طبيعة ساحرة بامتياز، وقد عدّ ابن خفاجة شاعر الطبيعة الأول، وقد كان الأندلسيون يلتقون مع النزعة الرومانسية الأولى في العصور الحديثة، على صعيد الطبيعة والارتياح في كنفها والأنس في مفاتها، وقد ذكر عمر الدقاق، أن الطبيعة عند الأندلسيين، ضاحكة دائماً أبداً (الدقاق،

1975م، صفحة 262) ونحن نقول: ليس دائما، إذ كثير من الشعراء قد جسدوا وجهها الآخر الحزين المؤلم كابن خفاجة مثلا، قد مزج مشاعره الحزينة إزاء الجبل والقمر والبحر والليل، ... بالإضافة إلى ابن زيدون في حزنه على ولادة استخدم عناصر الطبيعة في وجهها المتجهم، وابن حمديس والمعتمد وغيرهم.. فالطبيعة الأندلسية قد ألهمت ابن خفاجة، وكانت باعنا قويا لتأملاته نحو قضايا محيرة مثل الحياة والموت، فصلة الطبيعة عنده بالعبارة أو بمشكلة الفناء، التي كانت تلح على نفسيته إلحاحا يلحق بالمرض النفسي، فوقفته إزاء الطبيعة والفناء مجتمعين، تفاعلا عاطفيا جديدا، قائما على الرؤية العميقة وعلى التشخيص معا(عباس، 1997م، صفحة 167).

4. تجليات التجربة التأملية عند ابن خفاجة

1.4 الشاعر والجبل:

لقد وجد ابن خفاجة في الجبل السكون والصمت والسكينة التي لطالما بحث عنها في عالمه ولم يجدها، فكان عالمه مليئا بفوضى الصراعات السياسية والاجتماعية، لكونه مثله في مواجهة الرياح وعوامل الطبيعة المختلفة التي تمر عليه، إضافة إلى عامل الزمن، فهو شامخ على مر السنين، ويحمل معاني الوفاة التي يتصف بها الشيوخ، وهو أمل قد أعطاه الجبل للشاعر، من هنا أدرك ابن خفاجة بعد تأمله لهذا المعلمفلسفة الحياة ومصير الإنسان المحتوم، والموت الحقيقة المؤكدة.

تتجسد نزعة ابن خفاجة التأملية في قصيدته المشهورة عن الجبل، حيث راح يحدثه ويستنطقه لعله يشفي غليله ويهدأ من روعه، إذ يقول:

بعيشك هل تدري أهوج	+	تخب برحلي أم ظهور
فما لحت في أولى المشارق	+	فأشرقنت جنت أخرى المغارب
وحيدا، تمادني الفيافي فأجتلي	+	وجوه المنايا في قناع الغياهب
ولا جار إلا من حسام مصمم	+	ولا دار إلا في قنود الركائب
ولا أنس إلا أن أضاحك	+	ثغور الأماني في وجوه المطالب
وليل إذا ما قلت قد باد	+	تكشف عن وعد من الظن

(ابن خفاجة، د.ت، صفحة 47، 48)

تطرح هذه القصيدة إشكاليات عميقة تترك البشرية منذ زمن، فالحياة والموت ومصير الإنسان ككل يشكل هاجسا للشاعر وللإنسان عامة، فإحساس الشاعر بالوحدة والعزلة في مفارقة الأصحاب والأحباب، وإحساسه الحاد بالزمن وجو الليل الكئيب، قد أذهله وضاعف من قلقه من الزمن المفضي إلى الموت المحتوم، إنه يصارع زمنا نفسيا في عقله الباطن، يحاول أن يتخلص منه، بتكليف صمود الجبل أمام الزمن الموضوعي (عيسى و الشمالي، 2011م، صفحة 1987، 1988).

يوصل الشاعر في اصطبياد المفارقات، في محاولة لتفسير بعض السنن الكونية التي تحكم الحياة يقول:

وقال ألا كم كنت ملجأ قاتل	+	وموطن أواه تبتل تائب؟
وكم مر بي من مدلج وموؤب	+	وقال بظلي من مطي وراكب؟
ولاطم من ركب الرياح	+	وزاحم من خضر
فما كان إلا أن طوهم يد	+	وطارت بهم ريح النوى
فما خفق أيكى غير رجفة	+	ولا نوح ورقي غير صرخة
وما غضب السلوان دمعي	+	نزفت دموعي في فراق
فحتى متى أبقى ويضعن	+	أودع منه راحلا غير آيب
وحتى متى أرعى الكواكب	+	فمن طالع أخرى الليالي

(ابن خفاجة، د.ت، صفحة 48، 49)

فيشترك الشاعر والجبل في صفات منها علو الهمة، شموخ الكبرياء، طول العمر، تعدد التجارب، مهابة الوقار، "إن هذه هي مناخاة حقيقية يظهر فيها الشاعر قلقا متعجبا من الموت، ويتشبه بمفاهيم البقاء مع قناعته التامة بجمية الموت وشموليته، فتأمله قاده إلى أرق المشاعر، وشغل تفكيره بالمصير المنتظر القلق من الموت، وقد شكلت في شعره هاجسا وجدانيا عميقا، والإقبال على المجهول يفرض على النفس صنوفا من محاورات ذاتية يغلفها الخوف" (عيسى و الشمالي، 2011م، صفحة 1982، 1983).

يستفهم الشاعر ويتعجب حين يخاطب الجبل في حيرة، ويحدثه عن العجائب التي مرت به عبر الزمن، وما تحمله من مفارقات الخير والشر، ويبقى هذا المظهر شاهدا على تجدد العصور وتعاقب الأجيال

والأزمة مع استمرار الحياة، فتجسد على لسانه فكرة بقاء الحياة من خلال دوران الأرواح بين أجساد البشر وشخصهم التي تفتنى باستمرار. (مقداد، 1435هـ/2013م، صفحة 124)

كما نلاحظ في هذه الأبيات اندماج الشاعر في الجبل بحيث نجده تارة يتكلم عن نفسه وتارة عن الجبل، بل أصبح هو والجبل واحدا وهذا يدل على أن الشاعر ينسى ذاته لأنه في قمة التأمل الروحي، لكونه يتكلم على الإنسانية جمعاء.

وفي نهاية القصيدة، وبعد هذه الجملة من التأملات يستسلم الشاعر للبكاء والتضرع لله، وطلب الرحمة، بعدما يقن تماما من أن هذه سنة كونية لا مناص منها، وعلى الإنسان تقبلها والاعتبار من الأمم السابقة والرضى بالقضاء، بل وجد الشاعر الراحة في الدعاء والتضرع والسكينة، لأن هذا هو السبيل الوحيد لدحض القلق والخوف وهو التوجه إلى الله. يقول:

فرحماك يا مولاي دعوة ضارع + يمد إلى نعماك راحة راغب
فأسمعي من وعظة كل عبرة + يترجمها عنه لسان التجارب
فسلى بما أبكى وسرى بما شجا + وكان على عهد السرى خير
وقلت قد ركبت عنه لطية + سلام فإننا من مقيم وذاهب

(ابن خفاجة، د.ت، صفحة 49)

استنادا إلى ما سبق، يمكن أن نعتبر تجربة ابن خفاجة التأملية مع الجبل تجربة متكاملة، تتم عن تأمل عميق في سر الوجود ومصير الإنسانية وحتمية الموت، وكل هذه الحقائق قد أدركها في جعله معادلا موضوعيا لذات الشاعر، وكأن بالجبل الصامد في هذه الحياة، من يمتلك صفة الخلود التي تفتقدها البشرية، فهذا المظهر رمزا جوهريا لموقف الشاعر من الزمن، وتظل فكرة الموت هاجسا يلازم ابن خفاجة أينما ذهب، ولهذا، يرى هيدغر: "أن الموت تجربة شخصية يعايشها الإنسان صباح مساء، فيستمد منها القلق والهلم، وهما متلازمان لإدراك كنه الوجود، وضروريان للشعور بالحرية" (فايز، 2003م، صفحة 35).

استخدم ابن خفاجة أسلوب التشخيص ببراعة في هذه القصيدة: فهو وسيلة لازمة لتوليد عنصر الخيال الذي ران على معظم أبيات القصيدة، بحيث غدا عنصر الإيهام الذي يؤرّجح نفس القارئ بين حال

الشاعر وحال الجبل، من مقومات الجودة في القصيدة، وهكذا فإن ابن خفاجة لم يصف جبله وصفا تقليديا قائما على الرؤية الحسية، ورصد الصفات المادية، وشأنه في ذلك شأن لامارتين في وصفه للبحيرة، حين انبثت مشاعره وأفكاره في أعطاف الطبيعة الآسرة، وحين سرت ملامح هذه الطبيعة الجميلة في نفسه فيما يشبه الحلول الصوفي الذي لا انفصام له (الدفاق، 1975م، صفحة 249، 250).

لا مناص من القول، أن الشاعر استطاع أسر القارئ من خلال استخدام الأسلوب القصصي الدرامي، في حوار جار بينه وبين الجبل، تتخلله لغة فخمة وجذيلة تشبه لغة الشعر الجاهلي، مما يتناسب والتجربة التأملية العميقة، بالإضافة لموسيقى الألفاظ والبحر الطويل، الذي جسّد الحوار القصصي ومن جهة أخرى، كان اختياره لألفاظ تتناسب وجو الحزن والقلق الوجودي، الذي لازمه طول هذه التجربة.

إن اتجاه ابن خفاجة للطبيعة، واندماجه فيها، لمي سمة رومنسية ممزوجة بطابع الحزن والتشاؤم، يستأنس بها وحدته من أجل تفسير لرؤيته للعالم من حوله، "فهذه القصيدة فريدة من نوعها في الشعر العربي، إذ ينبئ مضمونها عن مغزى سام يتمثل في: البحث عن إجابة مقنعة لسؤال الحياة، سؤال قلق الإنسان وخبرته وإحساسه بالغربة الروحية، وبلا جدوى من العيش ومكابدة طبائع الزمن الوجودي الخادع، لكأنه فيلسوف وجودي، دفعته تجاربه الحياتية الطويلة وتأملاته العميقة بأسرار الوجود إلى تشخيص صراعه النفسي، شعرا محاولا استشراف طمأنينة ما من جدلية الحياة والموت" (عميسى و الشمالي، 2011م، صفحة 1991).

يعتبر استخدام ابن خفاجة لرمز الجبل صورة جديدة غير معهودة في الشعر العربي القديم حتى أن جودت الركابي قال فيها: "هذه القصيدة في وصف الجبل تمنحنا نفحة جديدة للشعر الأندلسي، هي هذه المشاركة في العواطف التي يشعر بها المتأمل لسحر الطبيعة وما يعتريه من رهبة أو طرب وإعجاب، ولهذا نستطيع أن نقول: إن ابن خفاجة قد استطاع في هذه القصيدة، أن يناجي الطبيعة على نسق جديد لم يعهده الشعر العربي القديم، فأشرك النفس الإنسانية بسر الطبيعة وأدرك ما يسمى عند الفرنجة بحس الطبيعة". (الركابي، 1966م، صفحة 108)

2.4 الشاعر والقمر:

لقد وصف ابن خفاجة الطبيعة لدرجة أنه أصبح رمزا والشاعر الأول في وصف الطبيعة حتى أن غرسية غومس يقول في روضيات ابن خفاجة: "إنها سائغة بديعة تصدر عن طبع في لماع، فتبدو وكأنها مشاهد خيالية أو مجالس أنس خمرية، ويمكن القول بأنه سبق بها شعراءنا في وصف الطبيعة على النحو الذي نعرفه، وقد كان أثر طريقة ابن خفاجة عظيما بعيدا، حتى لنلمس آثار هذا الأسلوب الخفاجي إلى نهاية أعصر غرناطة" (نثيا، د.ت، صفحة 124).

إن وصف ابن خفاجة للطبيعة لم يكن وصفا سطحيا لمجرد الوصف، بل كان يتعمق في وصفها وفي كل جزئياتها وتفصيلاتها، بل نجده يضيف على مظاهرها المختلفة صفات إنسانية، تجعله يندمج فيها، في محاولة لفهم أسرار الكون ومشكلات كبيرة تتعلق بالحياة والموت.

لقد تأمل ابن خفاجة أغلب مظاهر الطبيعة، فقد كانت له قصة مع الجبل، وتجاوز مع القمر والبحر والليل، وغير ذلك من مظاهر الطبيعة الصامتة، بل جعلها طبيعة حية، ولجوؤه للقمر باعتباره ماثلا للنفس الإنسانية، يقول:

لقد أصحخت إلى نجواك من قمر + وبت أدلج بين الوعي والنظر
لا أجتلي ملحا* حتى أعني + عدلا من الحكم بين السمع
و قد ملأت سواد العين من + فقرط السمع قرط الأنس من
فلو جمعت إلى حسن محاورة + حزت الجمالين من خير ومن

(ابن خفاجة، د.ت، صفحة 111، 112)

اختار ابن خفاجة القمر لما له من تأثير بالغ على النفس الإنسانية في صفاته وأحواله، حيث يقول المرزوقي في أحوال القمر: "قال أبو الحاتم: قال أبوزيد: يقال الهلال مادام ابن الليلة أو ابن ليلتين، فإذا استدار وعظم قبل أن يستدير فهو القمر المستقبل، فإن غطاه سحاب أو قوة فلم ير إلا بعد ثلاثة من أول الشهر فهو قمر وإلا يدعى هلالا.

"وأما القمر فهو ضوء القمر ويقال طلع القمر ولا يقال طلعت القمر، ولكن يقال أضاءت القمر، كما يقال أضاء القمر، ويقال وضح القمر وضوحاً". (المرزوقي الأصفهاني، 1417هـ/1996م، صفحة 294)

لقد توجه الشاعر إلى القمر متأملاً فيه تماماً كتأمل سيدنا إبراهيم، لما راح ينظر إلى القمر تارة، وإلى الشمس تارة أخرى، كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)﴾ [الأنعام: 76-78]، وفي الأخير اقتنع سيدنا إبراهيم في هذه الرحلة التأملية من أصغر كوكب إلى الأكبر ومن ثمة أدرك تجلّي له الله من خلال البحث عن الحقيقة انطلاقاً من مخلوقات الله، فالتأمل سبيل للإيمان بالقلب والطمأنينة.

وابن خفاجة تعرف على أحوال القمر كسوفه تارة وإقماره تارة أخرى، ونقصانه تارة وإكماله تارة أخرى، فقد تعجب من التغيرات التي تحدث للقمر محاولاً إسقاطها على حياة الإنسان، فالحياة متغيرة بين الخير والشر وطباع الناس في تغير، والدهر لا يبقى على حاله، ولم يبقى شيء على حاله، يقول:

وإن صممت ففي مراك لي عظة	+	قد أفصحت لي عنها ألسن
تمر من ناقص حورا ومكتمل	+	كورا ومن مرتق طوراً ومنحدر
والناس من معرض يلهو وملتفت	+	يرعى ومن ذاهل ينسى ومدكر
يلهو بساحات أقوام تحدثنا	+	وقد قضوا فمضوا، إنا على الأثر
فإن بكيت، وقد يبكي الخليل	+	شجو، يفجر عين الماء في الحجر

(ابن خفاجة، د.ت، صفحة 112)

"والقمر بنظره العلوية المتأملة يحمل لنا قصة حياة، فهو يحمل لنا دلالة زمنية بالحضور والغياب والزيادة والنقصان وهي مقاربة لحياة الإنسان المنسجمة نموا وموتا مع ولادة القمر واختفائه، وهو بذلك يقدم رسالة واضحة للبشرية، فمن نقص إلى اكتمال ومن ارتقاء إلى انحدار، وتلك حالات تستوجب التأمل، فهي شبيهة بمراحل نمو الإنسان إذ يبدأ صغيراً ويكتمل شاباً، ثم لا يلبث أن يعود كهلاً، وإن كان الإنسان يحصد الموت فإن القمر يتجدد ولا يلبث أن يعود سيرته الأولى" (الحواري، 2017م، صفحة 76، 77).

إن الجمال يكتمل عند ابن خفاجة بمحاورة القمر له، ولكن يجد في دلالة الصمت العظة والعبرة، فالصمت يثير مشاعر الخوف والرغبة في نفسية الشاعر من جهة، ويوحى بالعظة والعبرة من جهة ثانية تلك مفارقات تأملها الشاعر في صفة القمر، وهو نفس الموقف الذي مرّ به أبو العتاهية، لما تأثر بموت الإسكندر المقدوني، قائلاً:

وكانت في حياتك لي عظات + فأنت اليوم أوعظ منك حيا

(أبو العتاهية، 1406هـ/1986م، صفحة 492)

يتعجب ابن خفاجة من الناس التي لا تتعظ من الأقوام التي اندثرت ولم يبق لها أثر، كما نلاحظ في هذه الأبيات اتحاد الشاعر مع القمر، بل أصبح القمر معادلاً موضوعياً للإنسان، وهذا يدل على أن الشاعر ينسى ذاته فهو في قمة التأمل الروحي، ويتكلم على الإنسانية جمعاء، يرى شوبنهاور: "أن التأمل الفني إنما ينطوي على جانبين هامين:

- أولاً: معرفة الموضوع لا بوصفه شيئاً فردياً بل بوصفه مثلاً أفلاطونياً، أعني صورة ثابتة لنوع واحد بأكمله من الأشياء، وهنا يتكلم ابن خفاجة حول موضوع الموت الذي يمس البشرية جمعاء.

- ثانياً: شعور الذات العارفة بنفسها لا بوصفها فرداً، بل بوصفها ذاتاً عارفة محضة خالية من كل إرادة، ومعنى هذا: أن النظر الجمالي ينطوي على خروج تام، على أساليب المعرفة المقيدة بمبدأ العلة الكافية، وهي تلك المعرفة التي تخدم الإرادة والعلم معاً، من دون أي مصلحة شخصية أو اعتبار ذاتي، وأن الذات المدركة حين تغوص في طبقات الموضوع وتنسى ذاتيتها". (زكريا، د.ت، صفحة 159)

لقد تجرد القمر عند ابن خفاجة، من قيمته الجمالية وبات مدرسة للعبر، ففي صمته عبرة وبلاغة وفي دورته الحياتية التي تحاكي حياة البشر على قصرها عبرة أخرى، وتتشابك الأمور حتى يصبح القمر ذاته شاهداً على ترهات الإنسان بحوراته الدنيوية التافهة، وذهوله عن حقيقة فنائه وتلاشيه، أننا ماضون على نفس الأثر فللقمر ذاكرة جماعية لكل من شاهدتهم منذ الأزل. (بخش، 2013م، صفحة 22)

فيآخر الأبيات، ينفجر الشاعر باكياً من عمق الألم الذي يبعثه أفول القمر، معادلاً بذلك أفول الإنسان، إلا أن دورة القمر تتجدد، بينما الإنسان راحل دون عودة.

إن رؤية القمر عند ابن خفاجة ليست رمزا للحب والجمال كما عودنا الشعراء، بل مدرسة للعبير وصورة مؤلمة لواقع الفناء الإنساني.

"والقمر رمز للبطل العربي، فالقمر يتصف بصفات منها أنه ذو ماهية زمانية، وهذه الماهية تشتق من البنية الزمانية للقمر وتتوارى معها، فالقمر يولد وينمو ويكتمل، وكذلك الإنسان في فضاء الدهر، ويصبح الوعي بالذاتية والقيمة بديلا عن الانتماء إلى الأهل ونورا يضيء الطريق المظلم المجهول، وأساسا للفاعلية والمعنى ومجالا لا نهائيا لإغناء الوجود الإنساني"، وهذا ما عبر عنه بقوله: "بت أدلج بين الوعي والنظر" فالشاعر يركز على التفكير العميق والوعي لا مجرد الرؤية البصرية.

"إن الشاعر العربي بطل حضاري لأنه يريد الانتماء إلى القيمة التي يبتكرها وإلى العالم الشعري الذي يؤسسه بوعيه وبرؤيته الجمالية" (جهاد، 2007م، صفحة 393).

وقد أنصف مُجد رجب البيومي ابن خفاجة، وحطم كل الدعاوى التي وجهت لشاعر الطبيعة الأول، بأنه يصف الطبيعة الوصف الحسي الخارجي، إذ يرى: "أن الشاعر لم ينظر إلى القمر في اكتماله فيراه قرصا من لجين، ولم يتذكر طفولته وهو هلال بعد، فيجده زورقا من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر، ولم ير شحوبه قبل المحاق حسناء مريضة، طال عليها الحجر، كما نسمع من بعض الشعراء، لكنه يصيخ إلى نجواه ويتمنى أن يحادثه في سمائه عن شجونه وآلامه، ويقول: إنه لو يتحدث لحاز الجمالين من خبر ومن خبر، وإن سكت فإنه صاحب الصمت البليغ الواعظ، وإن بكى فعن شجو يفجر عين الماء بالحجر، استلهام بديع حقا، ومحاولة شاعرية لفهم هذا الكوكب المتألق، واستبطان عميق لمشاعره، ونبش حفيف عن خوافيه" (البيومي، 1400هـ/1980م، صفحة 75، 76).

لقد وظف ابن خفاجة أسلوب التشخيص: الذي يجعل الموجودات ذات حركة وحياة ونشاط وتكلم وتتألم وتتجاوز، مما يضيف على النص صورة جمالية، كما امتزجت الصورة البصرية للقمر: النظر، البصر، الحسن، الاجتلاء، طورا، كورا، مكتملا... مع الصورة السمعية غير المباشرة في محاولة لاستنطاق القمر في قوله: الإصغاء، السمع، المحاورة، الإفصاح.

أما بالنسبة للإيقاع، فيبدو أن صوت القصيدة صوت صارخ، حيث استعمل الشاعر الكلمات الشديدة والحروف الانفجارية، واختار البحر البسيط المناسب لجو القصيدة، وحرف الروي الراء المكسورة مما زاد في إعطاء النص فعالية، فنجد صورة القمر الساكن في جو الليل الهادئ، سكون ممزوج بالوحدة والرهبة التي يعيشها الشاعر والإنسان، مما يشكل مفارقة بين سكون الليل وصوت القصيدة الصارخ، فالنفس منشغلة في التفكير والتأمل في هذا الكون.

لتعد القصيدة في الأخير لوحة فنية جمالية حاول فيها ابن خفاجة فهم الوجود من خلال الموجودات الكونية.

بناء على ذلك، تبدو تجربة ابن خفاجة التأملية مع القمر تجربة متكاملة، تتم عن تأمل عميق في سر الوجود ومصير الإنسانية، وحتمية الموت وكل هذه الحقائق قد أدركها في القمر، بحيث جعله معادلا موضوعيا لذات الشاعر.

3.4 الشاعر والليل:

ابن خفاجة شاعر الطبيعة والتأمل، فقد كانت له نظرات تأملية عميقة مع الليل، فوصلته به ليست مجرد وصف خارجي وسطحي، إنه ليل الذكرى والأشجان الدائمة، ليل الخوف والرهبة، فتجربته مع الليل كتجربته مع الجبل وكما في قصيدته الطويلة التي وصفه فيها وخلع عليه من ذاته، إنه ليل ابن خفاجة (طحطح، 1993م، صفحة 220)، إذ يقول:

وليل كما مد الغراب جناحه	+	وسال على وجه السجل مداد
به من وميض البرق - والجو فحمة	+	شرار ترامى والغمام زناد
سريت به أحبه، ولا حية السرى	+	تموت، ولا ميت الصباح يعاد
يقلب مني العزم إنسان مقلة	+	لها الأفق جفن، والظلام سواد
يخرق لقلب البرق خفقه روعة	+	به والجفن النجم فيه سهاد
سحيق، فلا غير الرياح ركائب	+	هناك ولا غير الغمام مزاد
كأني وأحشاء البلاد تجنني	+	سريرة حب، والظلام فؤاد

أجوب جيوب البید والصبح صارم + له الليل غمد والمجر نجاد
ولما تفرى من دجى الليل طحلب + وأعرض من ماء الصباح ثماد
حننت وقد ناح الحمام صبابة + وشق من الليل البهيم حداد

(ابن خفاجة، د.ت، صفحة 79، 80)

إن وصف ابن خفاجة لشدة الظلام الدامس الذي يتخلله وميض البرق كالشرار وصف شديد الدقة، بحيث يشرح شلنج هذا المنظر والازدواج بين النور والظلام بقوله: "لو أحاط بنا جميعا نهار يغشاه ظلام الليل أو ليل يسري به ضوء النهار لتحققت بذلك الغاية المثلى من جميع الأمانى، أو من أجل هذا تثير في نفوسنا الليالي المضاءة بنور القمر هزة عجيبة كل العجب وتلقي في روعنا شعورا رائعا بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى جد قريبة" (غنيمي، الرومنتيكية، د.ت، صفحة 157).

تبدو نظرة الشاعر نظرة سوداوية وتشاؤمية للحياة، كسواد الليل وما يحمله من دلالات القلق والخوف والأرق، فقد استعمل كلمات دلت على ذلك مثل: الغراب، الغمام، الرياح، البهيم، حداد، نواح، أحشاء، البرق، ... ألفاظ استسقاها من الطبيعة ليعبر عن قسوة تجربته في مقابل صفات الليل مثل: الظلام، الدجى، البهيم، سهاد، سواد، مداد، زناد، ... أما الصبح فهو صبح ميت، صبح الشباب الذي لا يعود، وهذه الدلالات عميقة تترك في نفس المتلقي أثرا بالغا تشارك فيه الشاعر ألمه وحزنه، فهي تجربة صادقة.

في هذا الجو الرمزي المخيف على مستوى الزمان والمكان، مضى الشاعر يواجه هذا الليل، وحيدا، غريبا، سحيقا، ليس من ركائب سوى الرياح، ولا من زاد سوى الغمام كأنه جنين في أحشاء البلاد أو سريرة حب كامنة والظلام فؤاد كأنها صور تدل على عمق رمزيتها وكثافة حملتها الرمزية، فالجنين في أحشاء أمه لا يرى سوى الظلام الممتد ولا يعي سوى دقائق الفؤاد، وتلح عليه صورة الليل مرة أخرى في آخر القصيدة فيراه كسيفا قاطعا، ويرى جمر الكواكب في الأفق تصطلي، ليعلوها من الفجر المطل رماد، حيث يزداد حنين الشاعر ويتجاوب نواحه مع نواح الحمام، وقد انجلى حداد الليل البهيم عن فقد حباته الذين ساروا بعيدا، وحالت بينهم وبينه الوهاد والفيافي (طحطح، 1993م، صفحة 221، 222).

"ولعل صورة الليل عنده، توحى بالصورة الحقيقية للمعاناة النفسية اليائسة، المكلفة بالحزن والألم والوحدة، فليل الشاعر سوداوي حزين لا نهاية له، تتلاشى أمامه جميع أحلامه وآلامه بطلوع الفجر" (عداري وعفران، 2018م، صفحة 546)، حتى الصبح لم يعد ذلك الأمل المنتظر فهو والليل سواء ففكرة الموت بدت واضحة ومسيطرة على ذات الشاعر، فالليل بوعدده أصبح كاذبا، والصبح بدا كالدئب الضاحك، فكلتا صورتين تنم عن رؤية تشاؤمية يائسة، وهذا ما عبرت عنه الأبيات التالية:

بليل إذا ما قلت باد فانقضى + تكشف عن وعد من الظن
سحبت الديداجي فيه سود + لأعتنق الآمال بيض ترائب
فمزقت جيب الليل بشخص + تطلع وضاح المضاحك قاطب

(ابن خفاجة، د.ت، صفحة 48)

وتصل به هذه الرؤية السوداوية لدرجة أنها تشكل لديه ثلوثا مأسويا، فالشاعر والظلماء والعيث، صحبة، تمثل ثلاثي تتقاذفه النوى والنوائب يعاني القلق والغربة، غربة الحاضر عن الماضي، غربة الشيب عن الشبيبة (طحطح، 1993م، صفحة 228) يقول:

فها أنا والظلماء والعيث صحبة + ترامى بنا أيدي النوى كل مرتمى
أراعي نجوم الليل حبا لبدره + وليس كما ظن الخلي منجما
فعفت غرابا، يصدع الشمل + وكان على عهد الشبيبة أسحما

(ابن خفاجة، د.ت، صفحة 206)

يبدو أن رؤية ابن خفاجة التأملية هي رؤية متكاملة عن الحياة البشرية والإنسانية عامة، فالإنسان يعاني من غربة في هذه الحياة، غربة المكان، غربة نفسية تتمثل في زوال هذه الحياة بظهور الشيب، وما الشيب إلا علامة من علامات الشيخوخة المؤدية للموت الحتمي والموت والشيب متعادلان. كلاهما ينبئ عن نهاية مصير الإنسان.

5. خاتمة:

بعد الخوض في تجربة ابن خفاجة التأملية اتضح أن قصائده تجارب صادقة مستوحاة من البيئة الأندلسية، تفسر قلق الشاعر إزاء قضية الفناء من جهة، وترجم إحساسه بالغرابة والوحدة والضيق من جهة ثانية، لهذا اتسمت تلك القصائد بالنزعة التشاؤمية، والنظرة المأسوية للحياة.

■ تعمق ابن خفاجة في تأملاته من خلال جدلية الحياة والموت وكان الإنسان المحور الأساس في هذه المعادلة يعيش هاجس الموت الذي يهدده في كل لحظة، مع إيمانه بقضاء الله وقدره، وإيمانه بختمية الموت وشموليته، حيث قدم الشاعر من خلال قصائده، رسالة إلى البشرية لضرورة التفطن والاعتاظ من فناء الأرقام السابقة، مما يكشف النزعة الإنسانية والحس المرهف لديه.

■ كانت الطبيعة مبعثاً قويا في تأمل الشعراء الأندلسيين وخاصة ابن خفاجة، وكان الجبل والقمر والليل حضور لافت ومعادلا موضوعيا للنفس البشرية في القصيدة الأندلسية بث فيها آلامه وأحزانه.

■ تعتبر قصائد ابن خفاجة في الجبل والقمر والليل نماذج عن الشعر التأملي الفلسفي الذي يبحث في قضايا جوهرية تتصل بالإنسان والحياة والموت.

■ اكتسى النص الشعري الأندلسي جمالية من خلال توظيف معجم مكثف يترجم مدى عمق التجربة التأملية، كما استخدم الشاعر التشخيص، وكل أساليب اللغة المختلفة لطرح إشكاليات جوهرية تموج في ذهنه، وكانت الصورة إحدى الوسائل التي أعطت الخطاب الشعري الأندلسي كثافة.

■ يتضح في الأخير أن الشعر الأندلسي قد وصل إلى النضج الفني والموضوعي، فقد طرح تأملات عميقة تخص البشرية، مما يجعل النص الأندلسي، عميقا ومنفتحا عبر الزمن ويشمل قضايا الإنسانية، ويفند ما ورد عن الشعر الأندلسي أنه شعر سطحي محصور في شعر الطبيعة والوصف الحسي. لهذا لا يزال الشعر الأندلسي بكرا ومكتنزا يحتاج إلى البحث والتنقيب.

6. قائمة المراجع:

+القرآن الكريم

1.6 المؤلفات:

- 1) إبراهيم بن خفاجة. (د.ت). الديوان. (د.ط). (شرحه وضبط نصوصه وقدم له: عمر فاروق الطباع) بيروت - لبنان: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع.
- 2) إبراهيم زكريا. (د.ت). مشكلة الفن - مشكلات فلسفية - (د.ط). الفجالة - مصر: مكتبة مصر.
- 3) أبو إسحاق أبو العتاهية. (1406هـ/1986م). الديوان. (د.ط). (تحقيق: البستاني كرم) بيروت - لبنان: دار بيروت للطباعة والنشر.
- 4) إحسان عباس. (1997م). تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين. (ط2). مصر: دار الشروق للنشر والتوزيع.
- 5) الحسن المرزوقي الأصفهاني. (1417هـ/1996م). الأزمنة والأمكنة. (ط1). (ضبطه وخرج أبياته: منصور خليل) بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية.
- 6) الطاهر أحمد مكي. (1987م). دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة. (ط3). القاهرة: دار المعارف.
- 7) آنجل جنثالث نثيا. (د.ت). تاريخ الفكر الأندلسي. (د.ط). (ترجمة: حسين مؤنس) القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- 8) جودت الركابي. (1966م). في الشعر الأندلسي. (د.ط). مصر: دار المعارف.
- 9) سعيد علوش. (1405هـ/1985م). معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة. (د.ط). بيروت / الدار البيضاء: دار الكتاب اللبناني / سوشيريس.
- 10) علي فايز. (2003م). الرمزية والرومنسية في الشعر العربي الحديث دراسة للأبعاد الأسطورية والدلالات في الشعر العربي منذ الجاهلية إلى العصر الحديث. (ط2). (د.ب): (د.د).

- 11) عمر الدقاق. (1975م). ملامح الشعر الأندلسي. (د.ط). بيروت - لبنان: منشورات دار الشرق.
- 12) فاطمة طحطح. (1993م). الغربية والحنين في الشعر الأندلسي. (ط1). الرباط / الدار البيضاء - المغرب: منشورات كلية الآداب / مطبعة النجاح الجديدة.
- 13) محمد التونجي. (1419هـ/1999م). المعجم المفصل في الأدب. (ط2، الجزء 01). بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية.
- 14) محمد رجب البيومي. (1400هـ/1980م). الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير. (د.ط). السعودية: إدارة الثقافة والنشر بالجامعة.
- 15) هلال جهاد. (2007م). جماليات الشعر العربي - دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي-. (ط1). بيروت - لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- 16) هلال غنيمي. (2005م). النقد الأدبي الحديث. (ط6). الفجالة - القاهرة: نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- 17) هلال غنيمي. (د.ت). الرومنتيكية. (د.ط). الفجالة - القاهرة: نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

2.6 المقالات:

- 18) خالد عبد الكاظم عذارى، و كريم عودة عفران. (2018م). الدلالات النفسية في شعر الطبيعة الصامتة لدى ابن خفاجة الأندلسي. مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية، المجلد 43، العدد (01)، الصفحات: 537-554.
- 19) دلال محمد طه بحش. (2013م). العالم قصيدة - أنشودتا الجبل والقمر، دراسة مقارنة في شعر لي باي وابن خفاجة. مجلة كلية الآداب، المجلد 63، العدد (71)، الصفحات: 1-31.

- (20) راشد عيسى، و نضال الشمالي. (2011م). خطاب الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي - قصيدة الجبل أمودجا - . مجلة جامعة النجاح لأبحاث العلوم الإنسانية، المجلد 25، العدد (08)، الصفحات: 1977-2056.
- (21) رحيم مقداد. (1435هـ/2013م). فلسفة الحياة والموت في الشعر الأندلسي. مجلة الأستاذ، المجلد 01، العدد (207)، الصفحات: 109-132.
- (22) صابر عبد الدايم. (ربيع الثاني/أكتوبر، 1413هـ/1992م). التجربة التأملية في شعر العقاد. مجلة الفيصل، العدد (190)، الصفحات: 3-146.
- (23) مُجَّد الحوراني. (ديسمبر، 2017م). استدعاء القمر في شعر ابن خفاجة - دراسة تحليلية - . مجلة التواصل الأدبي، المجلد 06، العدد (09)، الصفحات: 9-63.